سيميائية العنوان في سيرة حمزة البهلوان .. بين علاقات حضور سياقية وعلاقات غياب إيحائية

أ/ أسامة عطية[1].

الملخص

يسعى هذا البحث إلى قراءة سيرة الأمير حمزة البهلوان أو حمزة العرب، ومقاربتها من منظور الدرس السيميائي[2](1)، وذلك من خلال تَتَبُّع العلامات الموجودة في عنوان السيرة، واكتشاف دلالاتها، في محاولة للتوصل إلى العلاقات بين تلك العلامات، ومن ثَمَّ العثور على النسق العلاماتي الذي ينتظم النص السيري بالكامل، ما يؤدي إلى ما يُسمى - سيميائيًّا - بفك شفرة النص، اعتمادًا على العنوان الذي يمثل عتبة مهمة ونصًّا موازيًا يَلِجُ الباحث/القارئ من خلاله إلى عالم النص.

وتحاول الدراسة تحقيق هذا الهدف من خلال تفكيك بنية العنوان وتحليلها تركيبيًّا ودلاليًا. ثم استقراء العنوان من خلال مربع (غريماس)، للوصول إلى الثنائيات المتضادة والبنية الأولية التي قامت من أجلها سيرة حمزة البهلوان. ووفقًا لهذه القراءة السيميائية للنص السيري، فمن المفترض أن تصل الدراسة في نهايتها إلى تأويل جديد للنص السردي، ذلك التأويل الناتج عن اكتشاف العلاقات بين العلامات المختلفة في العنوان. فالقراءة السيميائية للنصوص «هي عبارة عن لعبة التفكيك والتركيب، وتحديد البنيات العميقة الثاوية وراء البنيات السطحية المتمظهرة فونولوجيًّا ودلاليًّا... تبحث عن مولدات النصوص وتكوناتها البنيوية الداخلية، تبحث جادة عن أسباب التعدد، ولا نهائية الخطابات والنصوص والبرامج السردية، وتسعى إلى اكتشاف البنيات العميقة الثابتة والأسس الجوهرية المنطقية التي تكون وراء سبب اختلاف النصوص والجمل»[3](2).

الكلمات المفتاحية: سيرة - حمزة البهلوان - سيميائية - عنوان

---

1 • مدرس مساعد بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - جامعة القاهرة

2 (1) يعتمد الباحث مصطلح (السيميائية) أو (السيميائيات) أو (السيميائيات السردية) الذي يُقصد به تلك المجموعة من التصورات والأدوات والإجراءات التي تُستخدم في البحث عن العلاقات بين الرموز والعلامات الموجودة في النصوص السردية، وذلك بهدف التوصل إلى البنية العميقة (الأولية) للنص، والتي تكشف عن الدلالات الخفية الكامنة في باطن النص، وهي بدورها تُكَوِّن - مجتمعة - المعنى الهدف للنص السردي، أو الموضوع ذا القيمة. انظر: دانيال تشاندلر، أسس السيميائية، ترجمة: طلال وهبه، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، أكتوبر2008، ص ص 447-448. وراجع: برونوين مارتن وفليزيتاس رينجهام، معجم مصطلحات السيموطيقا، ترجمة: عابد خزندار، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2008، ص ص 167-170.

3 (2) جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، الكويت، مج25،ع3، مارس 1997، ص79.

المقدمة

ستظل السيرة الشعبية أحد أهم أشكال التعبير الشعبي، وقد قامت جهود كبيرة لجمعها وتدوينها ودراستها، إلا أنها لا تزال في حاجة إلى جهود بحثية أخرى لاستكشاف جوانبها المتعددة وارتياد عوالمها التي لا يزال بعضها غامضًا. ومن بين السير التي لم تُدرس دراسة كافية سيرة حمزة البهلوان، حيث لم يقف الباحث في محاولته لجمع الدراسات التي قامت حولها إلا على أربع دراسات، منها دراستان في ستينيات وثمانينيات القرن الماضي[4](1)، ودراستان في عامي 2018، 2024[5](2).

وبوصف العنوان عتبةً يلج المتلقي منها إلى النص، وبوصفه نصًا موازيًا تجب دراسته بالقدر والاهتمام نفسه الذي يوليه الباحثون للنص السردي، تظهر الحاجة الماسة للتوقف أمام عنوان السيرة وتناوله بالبحث والدراسة؛ أملًا في أن يُظهر العنوان دلالةً جديدة لم تُكتشف بعد أو موضوعًا محوريًّا مُغايرًا تنهض به هذه السيرة. وفي سعيه لتحقيق هذا الهدف سيحاول الباحث دراسة مكونات العنوان أولًا، ثم سينطلق منه - بعد تحليله واكتشاف دلالاته - إلى النص السيري ذاته، بحثًا عن هذه الدلالات والعلاقات المُكتشفة في العنوان. ولما كانت الدراسة تنقسم إلى مرحلتين - مرحلة تخص العنوان وأخرى ترتبط بالنص ذاته - فيمكن تسمية المرحلة الأولى بالمرحلة الاستكشافية، وفيها سيتناول الباحثُ العنوان بالدراسة، محاولًا استكشاف ما به من دلالات وعلامات قد ترمز إلى معانٍ جديدة. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التفسير أو التأويل، وهي تلك المرحلة التي يؤكد فيها الباحث ما توصل إليه من دلالات ومعانٍ جديدة يحملها العنوان، من خلال الوقوف على تجليات هذه المعاني الجديدة في ثنايا النص السيري. وتجدر الإشارة إلى أن المرحلتين المذكورتين متداخلتان وليستا منفصلتين؛ إذ يُراوح الباحث بين العنوان (المرحلة الاستكشافية) والنص (مرحلة التفسير والتأويل) مع كل دلالة أو علاقة مُفترضة. وعليه فلن يجد القارئ فصلًا بين المرحلتين في أثناء البحث، فهذا التقسيم بمثابة خطوة توضيحية للمسار الذي سينتهجه الباحث في هذه الدراسة.

---

4 (1) انظر:

- غريب محمد غريب: سيرة حمزة البهلوان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1969.
- محمد رجب النجار: قراءة في سيرة حمزة العرب، مجلة التراث الشعبي، دائرة الشئون الثقافية والنشر، بغداد، ع5 و6، 1983.

5 (2) انظر:

- شفيق طه النوباني: الوعي الشعبي للهوية القومية: دراسة في سيرة الأمير حمزة البهلوان - حمزة العرب، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، سلطنة عمان، مج15، ع1، 2018.
- هيام هاشم عبد التواب: الأنساق الثقافية المضمرة في السيرة الشعبية: دراسة نقدية لسيرة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بني سويف، مصر، 2024.

منهج الدراسة :

يسعى هذا البحث إلى مقاربة العنوان في سيرة حمزة البهلوان مستعينًا بأدوات وإجراءات المنهج السيميائي، ذلك المنهج الذي ينظر إلى اللغة - عمومًا - بوصفها نظامًا علاماتيًّا. كما يتناولها - أي اللغة - في سياق النص السردي، محاولًا التوصل إلى الدلالات المستترة في غلاف من البنية السطحية، وكاشفًا عن العلاقات التي تربط بين تلك العلامات مكوِّنة الخيط السردي الذي ينتظم النص ويشكِّل بنيته.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الدراسة لا تستهدف تطبيقًا موسعًا للسيميائية في تناولها سيرة حمزة البهلوان، كما أن الدراسة لا تسعى إلى مناقشة الإشكالات الاصطلاحية الخاصة بالمنهج السيميائي - سواء قضية تحديد الاسم الأنسب للمنهج: السيميائية، السميوطيقا، السميولوجيا، العلاماتية، الرموزية، علم العلامات، علم الرموز، السيميوزيس وغيرها .. أو قضية تعريب المصطلح وما نتج عنها من التباس أو خلط في استخدام هذه المصطلحات المترجمة - وإنما تهتم الدراسة بالإفادة من إجراءات وأدوات المنهج السيميائي، وتوظيف هذه الأدوات في نسق تطبيقي متسق يفضي إلى قراءة عنوان هذه السيرة أو تأويله من منطلق سيميائي. ولا يعني هذا أن تلتزم الدراسة بالإجراءات أو الأدوات السيميائية فقط، بل ستسعى الدراسة على نحو تكاملي إلى الإفادة من المناهج الأخرى التي تُعنى بقراءة النص السردي، مثل تحليل الخطاب أو علم السرديات وغيرهما، فـ»المقاربة السيميائية تتقدم لتفكيك بنية النص عبر إجراءات نسقية تتأسس على ما يملكه القارئ/الناقد من رصيد معرفي يؤهله لتركيب أنساق النص في أنحاء جمالية، يسترشد في ذلك بمنهج التأويل، ومَرَدُّ تحرر القراءة السيميائية من منطق التقويم المعياري هو أن السؤال السيميائي لم يبرح بعد مجال الوصفية ولم يتبلور في إطار نمطي إجرائي»[6](1).

سيميائية العنوان .. بين علاقات حضور سياقية وعلاقات غياب إيحائية

من الثابت بين الباحثين المتخصصين في دراسات الأدب الشعبي عمومًا والسير الشعبية العربية خصوصًا أن لكل سيرة موضوعها وفكرتها الرئيسة وقضيتها المحورية التي تنهض بها وتعالجها منذ بداية صفحاتها، فضلًا عن القضايا أو الموضوعات الفرعية المبثوثة في ثنايا السيرة بوصفها نصًا شفاهيًا

6 (1) عبد الجليل منقور: المقاربة السيميائية للنص الأدبي: أدوات ونماذج، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة محمد خيضر بسكرة، نوفمبر 2000، ص 63.

طويلًا. وقد استقر بين الباحثين أن سيرة حمزة البهلوان إنما تُعنى بقضية رئيسة تتمثل في الصراع العربي الفارسي ومحاولة تخلص العرب من تسلط الفرس وظلمهم، وذلك من خلال تفنيد كل التهم ودحض كل الأوصاف السلبية التي كان يُلحقها الفرسُ بالعرب في تلك الفترة، مثل أن العرب أجلاف[7](1) لا يستحقون إلا أن يعيشوا تبعًا للفرس.

وتنطلق هذه الدراسة من فرضية تنفي هذا الزعم الثابت المستقر، محاولة الكشف عن القضية الرئيسة و(الموضوع) ذي القيمة الذي تنهض به السيرة. إذ يعتقد الباحث أن الصراع الحضاري بين العرب والفرس، والمنافحة عن القومية العربية ضد الغطرسة الفارسية لتخليص العرب من وطأة الفرس وسيطرتهم، يعتقد الباحث أن هذه القضية - وإن كان الباحث لا ينفي التعبير عن هذه الفكرة في تضاعيف النص السيري ولكن ليس بالشكل الذي يرقى بهذه القضية لأن تكون هي القضية الرئيسة التي تنهض بها السيرة- ليست محور سيرة حمزة البهلوان، وإنما هناك قضية أخرى تسعى الدراسة إلى الوصول إليها من خلال تناول عنوان السيرة تناولًا سيميائيًّا، باحثةً عن تجليات هذه القضية في عتبة النص (العنوان)، ومستكشفة البنية الأولية المولِّدة للدلالات وللسرد على مدار السيرة.

وفي محاولته مقاربة العنوان سيميائيًّا بوصفه العتبة التي يلج المتلقي منها إلى فضاء النص، وبوصفه عاملًا فاعلًا في إنتاجية النص ذاته ومشتغلًا فيه، حاول الباحث الوقوف على طبعات السيرة المختلفة لرصد ملامح التغير- إن وُجِد- في عنوان السيرة، بداية من الطبعات الأولى وانتهاءً بأحدث طبعات السيرة التي حصل عليها الباحث، وذلك لدراسة العنوان وما يحويه من علامات نصية تشير إلى القضية المتجذرة في السيرة؛ فالعنوان هو ذلك النص الموازي المقتضب الذي يجب أن يهتم به الباحثون بالقدر نفسه الذي يولونه للنص ذاته لأنه هو النص الأول الذي يقرأه المتلقي، فـ»أولية تلقي العنوان تعني قيام مسافة مائزة بين العمل وعنوانه، بما يمنح الاثنين استقلالهما، بنسبة أو بأخرى؛ ليستقل العنوان بمقاصد نوعية يفرض- بالتالي- اتصالًا أوليًّا نوعيًّا بين (المرسل) و(المتلقي). ومن ثَم، فإن على المنهج الذي ينصب- أساسًا- على العمل أن يُفرد إجراءات خاصة ومتميزة، لتحليل العنوان على مستويين، الأول: مستوى يُنظر فيه إلى العنوان باعتباره بنية مستقلة لها اشتغالها الدلالي الخاص، والثاني: مستوى تتخطى فيه الإنتاجية الدلالية لهذه البنية حدودها متجهة إلى العمل، ومشتبكة مع دلائليته

7 (1) يُقصد بالأجلاف الحمقى من القوم غلاظ الطبع.

دافعة ومحفزة إنتاجيتها الخاصة بها»[8](1).

تعددت طبعات سيرة حمزة البهلوان- شأن سائر الكتب والمؤلفات واسعة الانتشار- بمرور السنين، وتغيّر عنوانها واختُصرت أحداثها. وإذا أراد المرء تتبعَ رحلة طبعات هذه السيرة المختلفة حتى يومنا هذا فيمكنه أن يقف على عدة طبعات- منها ما ورد مؤرخًا، ومنها ما جاء دون تاريخ. والملاحظ أن هناك أربع طبعات تتفق في العنوان نفسه (قصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب)، فيما تأتي ثلاث طبعات بعنوان مختلف، إما بالحذف أو بالإضافة إلى العنوان السابق أو بكليهما معًا.

ولعل أهمية عناوين النصوص (العتبات) أصبحت لا تخفى على كل ذي لُبٍّ يريد الغوص في أعماق هذه النصوص واستكشاف أسرارها التي ترتكز أصولها- بطريقة أو بأخرى- في العناوين. فالاهتمام بالعمل الأدبي تحليلًا ونقدًا يحدث بالنظر في عنوان العمل بالقدر نفسه الذي يُنظَر به إلى العمل ذاته؛ إذ إن العمل وعنوانه كلٌّ لا ينفصل، ولن تُكتشف عوالم نص أدبي ما دون تأمل عنوانه وبحث مفرداته ومرجعياتها ودلالاتها، وربط هذه الدلالات بالعمل ذاته وبحث كيفية اشتغالها فيه وتفاعلها معه. فـ»المرسلة الموجهة من المرسل إلى المتلقي لا يمكن- بحال من الأحوال- أن تنحصر في العمل، بل هي العمل والعنوان متكافئين تكافؤًا سيميوطيقيًّا، إلى الحد الذي يجعل الاهتمام بواحد منها، دون الآخر، إهدارًا، ليس لما أُهمل فحسب، وإنما لما تم الاهتمام به كذلك»[9](2).

فللعنوان (العتبة) قدر من الاستقلالية عن العمل- تلك الاستقلالية التي لا تنفي تماهيه مع العمل لتشكيل كلٍّ لا يتجزأ- فوظيفة العنوان لا تقتصر فقط على الإحالة إلى العمل، بل يجب أن يخضع لإجراءات الدرس نفسها التي يخضع لها العمل، وذلك بوصفه نصًّا قائمًا بذاته، ومتعلقًا في الوقت نفسه بنصٍ آخر هو العمل الإبداعي[10](3).

8 (1) محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998، ص ص7-8.

9 (2) نفسه: ص8.

10 (3) نفسه: ص15.

تحليل عنوان السيرة سيميائيًّا

أولًا: المستوى النحوي والتركيبي

وبالوقوف على العنوان الأكثر تكرارًا بين طبعات السيرة المختلفة، (قصة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب)، نجد أنه من الناحية التركيبية عبارة عن وحدات دلالية تُشَكِّل جملة خبرية تتكون من مبتدأ محذوف تقديره (هذه)، يليه خبره (قصة)، ذلك الخبر الذي تمت إضافته إلى (الأمير) ليكوِّنا معًا التركيب الإضافي الأول في العنوان. ويمر التركيب الإضافي (المضاف والمضاف إليه) بمرحلتين، الأولى هي مرحلة التكوين التي يتم فيها تركيب المتضايفين لإفادة التخصيص أو التعريف- إذا لم يكن المضاف صفةً والمضاف إليه معمولًا لتلك الصفة، نحو: هذا ضارب زيد الآن- والثانية هي مرحلة الإبداع والتوليد الدلالي، وهي تلك المرحلة التي تسمح بتأويلات دلالية متعددة تُكسب هذا التركيب الإضافي من الدلالات ما ليس لأجزاء التركيب منفردة. فالتركيب (قصة الأمير) يفتح بابًا من التأويلات مثل: قصة الأمير التي تُحكى بهدف ترسيخ قيمة العدل في المُلك، أو قصة الأمير الذي فضّل مصالحه الشخصية على الاهتمام بشؤون رعيته، أو قصة الأمير الذي نجح في الدفاع عن شعبه ضد الغزوات الاستعمارية، إلى آخر ذلك من التأويلات التي لم تكن متاحة في الوحدتين المعجميتين (قصة- أمير) منفصلتين[11](1). ثم يأتي بعد ذلك التركيب البدلي، ويتكون من مبدل منه (الأمير) والبدل (حمزة) ليدرك المتلقي أن الأمير الذي ستُحكى قصته اسمه حمزة، ففي التركيب البدلي يكون هدف المتكلم التركيز على البدل وليس المبدل منه. ثم يتبع التركيب البدلي تركيبان نعتيان يخصصان اسم الأمير ويوضحانه، فهي إذن قصة لأمير يُدعى حمزة، المُلقب بالبهلوان - وتعني بطل الأبطال بالفارسية- كما اشتهر كذلك بلقب آخر هو حمزة العرب، وهذا تركيب إضافي آخر يُختتم به العنوان، ويعتقد الباحث أن هذا التركيب الأخير لم يوضع هكذا اعتباطًا، وإنما ليحدث نوعًا من التوازن سيحاول الباحث توضيحه في المستوى الدلالي.

11 (1) راجع: عطية سليمان أحمد، في علم الدلالة الإدراكي، الإبداع الدلالي في المتضايفين، بين البنية التصورية والبنية العصبية، كتاب ثمار القلوب للثعالبي نموذجًا.
تم الوصول إلى جزء من محتوى الكتاب من خلال الرابط: https://maamri-ilm2010.yoo7.com/t1840- topic
وكان ذلك بتاريخ 2024/6/28.

ثانيًا : المستوى المعجمي والدلالي

على المستوى الدلالي يظهر للمتلقي منذ قراءته لعتبة هذا العمل الإبداعي أنه أمام نص يختلف أو يمتاز عن غيره من النصوص التي تنضوي تحت النوع نفسه المعروف بالسيرة الشعبية؛ ويتبدى هذا الاختلاف منذ الكلمة الأولى للعنوان؛ إذ إنه من المستقر والمُتَّبع بالنسبة للنصوص التي تنتمي لهذا النوع أن يبدأ العنوان بكلمة (سيرة) بوصفها علامة على هذا النوع المعروف من الأدب الشعبي، والأمثلة على ذلك كثيرة: سيرة عنترة بن شداد، سيرة الأميرة ذات الهمة، سيرة الملك سيف بن ذي يزن، السيرة الهلالية أو سيرة بني هلال، سيرة الظاهر بيبرس. إن استخدام كلمة (قصة) بدلًا من (سيرة) ثابت في كل الطبعات التي وقف عليها الباحث حتى الآن إلا من طبعة واحدة، هي طبعة المطبعة والمكتبة السعيدية بمصر، وعنوانها (سيرة الأمير حمزة البهلوان، فارس برية الحجاز وسلطان العرب). فكلمة (قصة) توحي بشكل سردي روائي تملؤه الأحداث والشخصيات، أو هي تشير إلى ذلك النوع من الحكاية - شفاهية أو مدونة - التي تمتاز بمكونات سردية متعارف عليها، فالشخصيات والزمان والمكان والحدث والمشكلة والحبكة تُكَوِّن- معًا- شكلًا من أشكال التعبير يسمى (القصة). ولعل القصدية في استخدام كلمة (قصة) بدلًا من (سيرة) في العنوان هنا يؤكد ما ذهب إليه عدد من المتخصصين في الدراسات الشعبية من أن سيرة حمزة البهلوان تختلف في صياغتها عن معظم السير الشعبية العربية؛ إذ إنها تُعد بناءً فنيًّا متكاملًا أشبه بالرواية، يعتمد فيه المتلفظ- القاص الشعبي- على مستوى من النثر الفني أكثر نضجًا من مثيله في السير الشعبية الأخرى، مُبتعدًا- في كثير من الأحيان- عن السرد المسجوع بوصفه نمطًا سائدًا في السير الشعبية العربية. فالبطل في هذه السيرة ليس منتسبًا إلى قبيلة بعينها، وهو يدعو إلى دين عام دون تحديد هوية هذا الدين أو النبي الذي بشَّر به. ويُعد حمزة البهلوان هو البطل الوحيد في السير الشعبية العربية الذي لم يدخل في صراع مع قبيلته أو قومه، مما يشي بأفق أوسع للرؤية ومستوى من النضج الفني الذي حدا بالقاص إلى تجسيد قضية عربية عامة لا تخص قبيلة بعينها أو بلد مخصوص[12](1).

كما يتجلى هذا النضج أيضًا على مستوى تشكيل وبناء الشخصيات، فالشخصيات في السيرة بعيدة تمامًا عن السطحية، فلا تُصنف الشخصيات إلى نوعين (الخير المطلق والشر المطلق) وإنما يجد المتلقي شخصيات أكثر عمقًا في بنائها الفني، مثل شخصية الأمير قاسم بن رستم التي يمكن اعتبارها شخصية إشكالية يتصارع بداخلها الخير والشر. هذا فضلًا عن الاهتمام الذي يوليه القاص الشعبي بالوصف في

12 (1) راجع: محمد رجب النجار، البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، ص ص 90-91.

هذه السيرة، سواء كان وصفًا للسياق الزمني أو المكاني أم وصفًا للشخصيات في السيرة وتعبيرات وجوه المتحدثين وما يعتمل بصدورهم[13](1).

وإذا انتقلنا إلى الكلمة الثانية في العنوان (الأمير) فمن الملاحظ أنه يمكن تقسيم أشهر السير الشعبية العربية[14](2) إلى صنفين، يحتوي الصنف الأول على مجموع السير التي ينتمي بطلها إلى الطبقة الدنيا في التصنيف الاجتماعي، ويمثل هذا النوع كلٌ من: عنترة، وأبوزيد الهلالي، والظاهر بيبرس. أما الصنف الثاني فينتمي أبطال السير فيه إلى طبقة الأمراء والنبلاء، مثل: الأميرة ذات الهمة، والملك سيف، والأمير حمزة البهلوان. وعليه فإن بطل السيرة هنا هو رمز للنبل والسلطة والشرف والمكانة الاجتماعية العالية، مما يُكسب السيرة والأحداث- بما تتضمنه من بطولات ومغامرات- أهمية وقداسة إضافية؛ لا سيما وأنه يسعى إلى نشر دين الله في الأرض.

يفصح العنوان بعد ذلك عن اسم هذا الأمير من خلال تركيب نعتي، فهو (حمزة البهلوان)، و«اسم حمزة مشتق من الجذر (ح، م، ز)، فيقال حَمَزَ اللبنُ أي حَمُضَ وصار لاذعًا. وإنه لحَمُوزٌ لِمَا حَمَزَهُ أي مُحتمِل له. وحَمَزَتْ الكلمةُ فؤادَه أي قبضته وأوجعته. ويُقال رجلٌ حامِزٌ وحَميزٌ أي شديدٌ ذكيّ. ويُقال لكل ما اشتدَ قد حَمُز. ويُقال فلانٌ أَحْمَزُ أمرًا من فلان إذا كان مُتَقَبِّضَ الأمر مُشَمِّرَهُ، ومنه اشتُق حَمْزَةُ»[15](3). وبالتأمل في المعاني السابقة نجد أن اسم حمزة هو جِماعٌ لـ: (اللذوعة والحموضة- التَّحمُّل- الألم والإيجاع- الشدة مع الذكاء- الاستعداد أو التهيؤ للأمر والتركيز فيه). فهو للعدو لاذع، للصعاب متحمل، يستطيع أن يسبب الألم والأوجاع، قوي شديد الذكاء، على أتم استعداد للقيام بمعالي الأمور. فلما اجتمعت تلك الصفات في بطل السيرة، رآه القاص الشعبي أسدًا، فسمَّاه باسمه حمزة. إن هذا الاسم العربي الخالص له من الحمولة الدينية والثقافية ما له في نفوس العرب والمسلمين؛ وذلك لارتباطه بحمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، والملقب بأسد الله. فاستخدام اسم حمزة يُعد تناصًا لجأ إليه القاص الشعبي لإضفاء القداسة الدينية على بطل السيرة وأفعاله، فقد حاول القاص الشعبي أن يمارس نوعًا من السلطة الدينية على النص. وتظهر هذه المحاولات على مدار النص السيري بداية من اسم بطلها وما له من حمولة دينية متجذرة في التاريخ الإسلامي، ومرورًا

13 (1) انظر: غريب محمد غريب، سيرة حمزة البهلوان، ص152.

14 (2) أقصد هنا: سيرة عنترة بن شداد، وسيرة الأميرة ذات الهمة، وسيرة الملك سيف بن ذي يزن، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وسيرة الأمير حمزة البهلوان

15 (3) ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة' ص 994.

بأن حمزة قد جاء من مكة- الأرض التي انطلقت منها الرسالة المحمدية- وانتهاءً بعدد النساء اللاتي تزوجهن حمزة، فقد تزوج عدد نساء يوازي عدد نساء الرسول، هذا فضلًا عن أن اسم أبيه إبراهيم، كما أن اسم مساعده عمر. كل هذه التجليات وغيرها إنما تمثل محاولات لإضفاء نوع من الشرعية على كل سلوكيات البطل وأفعاله؛ لتُجنبه أية محاولة للانتقاد أو المساءلة، ولأن ما سيقوم به من محاولة لدمج الحضارتين- العربية والفارسية- هو أمر جَدُّ خطير سيعرضه دون شك لسهام الانتقاد الرافضة لهذا المسعى. فكانت تلك اللمسات الدينية في رسم شخصية حمزة بمثابة درع يسمح له بخوض تجربة جديدة فيما يخص الصراع الحضاري العتيق - العربي الفارسي.

وبالإضافة إلى ما يوحي به هذا الاسم من دلالات القوة والشجاعة والجَلد والمثابرة، فإنه- رغم كونه اسمًا مرتبطًا بالرجال- يُصنف من الناحية اللغوية من الأسماء المؤنثة تأنيثًا لفظيًّا[16](1)، فاسم حمزة إذًا يجمع - أو يمزج- بين متقابلين، التذكير (معنى) والتأنيث (لفظًا).

وإذا كان الجزء الأول من هذا التركيب النعتي (حمزة البهلوان) يشير إلى العروبة بما يحمله من دلالات لغوية ودينية وثقافية، فإن الجزء الثاني من التركيب- أقصد البهلوان- يشير إلى تأثير ثقافي فارسي؛ لأن الوصف ليس عربي الأصل، فالبهلوان بالفارسية هو بطل الأبطال أو القوي الشجاع، وهو اللقب الذي لقبه به كسرى أنوشروان. والملاحظ أن هذا الوصف لم يُضف شيئًا جديدًا إلى صاحب الاسم؛ إذ إن القوة والشجاعة والبطولة هي صفات اكتسبها حمزة من دلالات اسمه. فقد جمع- مزج- هذا التركيب إذًا بين اسم عربي خالص ولقب فارسي. إلا أن هذا التوضيح الذي أضافه هذا التركيب النعتي يجعل صاحب الاسم أكثر مَيلًا للجانب الفارسي على العربي، وذلك لسببين، الأول أن النعت يفيد التخصيص- في النكرات- والتوضيح - في المعارف- والثاني أن الذي أطلق هذا التوضيح هو كسرى أنوشروان ذلك الرمز الفارسي السلطوي. ولكلمة (بهلوان) تاريخ دلالي طويل، فقد «صارت الكلمة في أيامنا تعني (المُهرّج)، وكانت قبل عقود كثيرة تعني (لاعب الجمباز). وأصل كلمة (بهلوان) يتردد بين الكردية والفارسية والأردية بمعنى الشخص الشجاع، ومنها (بَهْلَوي) بمعنى (ملك). و(البُهْلُول) في العربية القديمة تعني (السيد الشجاع)

16 (1) المؤنث اللفظي هو الاسم الذي يحتوي على علامة تأنيث ومعناه مذكر، مثل: طلحة، أسامة، حمزة، عنترة وغيرها.

قال الشاعر:

يا ابن البهاليلِ والأطوادِ من مُضَرٍ والمُنعمين بِسَيْبٍ يُخْجِلُ الدِّيَمَا»[17](2).

فأصل الكلمة دلاليًا يشير إلى الرجل الشجاع أو الفارس المغوار نادر الوجود، ثم تطورت دلالتها لتضيف بُعدًا آخر إلى جانب الشجاعة والفروسية، فـ« ب هـ ل و ا ن

]٨٠١ - ب هـ ل و ا ن[

بَهْلوان]مفرد:[ج بهلوانات وبَهالينُ:

١ - شخص بارع في نوع من الألعاب التي تتطلّب التوازن والخفّة كالمشي على الحبل، من يحاول إدهاش النَّاس بوسائل غريبة)بهلوان على سلك حديدي ° (طيران بهلوانيّ: طيران استعراضيّ، تمرين خطر أو صعب يُجرى بالطائرة.

٢ - صاحب حيل وألاعيب)بهلوان في الشئون الماليّة.(

بَهْلوانيَّة]مفرد:[

١ - اسم مؤنَّث منسوب إلى بَهْلوان.

٢ - براعة في بعض الألعاب أو الحركات التي تثير الدهشة)بهلوانيّات خطابيّة - بهلوانيات جويّة: ألعاب خِفّة ومهارة يقوم بها طيّار - أفكار بهلوانيّة - حركات بهلوانيّة: حركات أوحيل بارعة)».[18](1)

«[19](2).

فبعض المعاجم تشير إلى أن الكلمة تعني خفة الحركة واتزانها فقط، والمتتبع لمعنى الكلمة في المصادر المختلفة سيجد أن بعضها يثبت معنى الشجاعة والبطولة، والبعض الآخر يورد معنى الخفة والحركة السريعة، كما سيجد مصادر أخرى تجمع بين المعنيين في آن «وهكذا أصبحت الكلمة تجمع في دلالتها بين الشجاعة والفروسية والبطولة من جهة، والخفة مع القدرة على الإتيان بحركات مدهشة وغير مألوفة من جهة أخرى. ويعتقد الباحث أن هذا ما أراده القاص الشعبي بإطلاق لقب البهلوان على بطل السيرة، إذ لطالما وصف فروسية (حمزة) وقدراته القتالية الممزوجة بالخفة والمرونة والقدرة على

17 (2) الخطأ الشائع لغويًا .. في التنويه إلى الخطأ: تأملات، تقديم (محمد صالح)، الحلقة 90، قناة الجزيرة، 2021/2/2، https://www.youtube.com/watch?v=QoJg-k3jwOg&list=PLJyrzEL-wvYKyQSlI_D77fM6OoPtkcuHt&index=90

18 (1) أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، مج1، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ص256، ٨٠١ - ب هـ ل و ا ن.

19 (2) مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط5، 2011، ص74، باب (الباء) فصل (الهاء) مع (اللام).

مفاجأة الخصم وتفادي ضرباته بحركات عجيبة ومدهشة، فها هو (حمزة) الغلام الصغير يفاجئ فرسان أبيه (إبراهيم) بقدراته وإمكاناته التي لا يستطيعها أكثرهم بسالة وأملكهم لفنون القتال «وكان أبوه قد اندهش مما شاهد منه ورغب قلبه فرحًا، ولذلك أمر أن تنزل إليه الفرسان وتجيب طلبه فيما يريد فصاحوا وهجموا عليه من كل مكان فالتقاهم بثبات عزم وقوة جنان وجعل يطعنهم برمحه فيصيبهم ويعزلهم من الميدان وما أحد منهم قدر أن يتمكن منه بضربة أو يصل إليه بطعنة لأنه كان ينحذف إلى الأرض ويقمز إلى ظهر الجواد بأسرع من البرق ويضيع طعن الرماح في الهواء... «[20](1).

ولأن العنوان لا يوضع اعتباطًا، ولأنه- سيميائيًّا- على اقتضابه يحمل في طيَّاته البنية الأولية كما يحملها النص ذاته، فقد أُضيف إلى العنوان جزء آخر هو (المعروف بحمزة العرب)، ويمكن تقسيم هذا الجزء المضاف إلى (المعروف بـ) و(حمزة العرب). والحقيقة أن هذا الجزء الأخير للعنوان مثير للانتباه؛ ذلك أن هذه الطريقة في صياغة العنوان توحي بأن صاحب السيرة شخصية حقيقية، لها وجود تاريخي؛ فهذه صياغة معهودة في كتب السير والتراجم وطبقات الرجال، فيقول الذهبي مثلًا في سير أعلام النبلاء، وهو يترجم لعبدالله بن عبدالله بن أُبَي: «ابن مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك... المعروف والده بابن سلول المنافق المشهور»[21](2). وكذلك يقول في ترجمته ليزيد بن أبي سفيان: «ابن حرب بن أمية بن عبد شمس... ويُقال له يزيد الخير»[22](3). وهذا نوع من الإيهام الفني الذي يمارسه المتلفظ ليقنع القارئ بواقعية السيرة وأحداثها وشخوصها. كذلك فإن الباحث يعتقد أن هذا الجزء الأخير للعنوان إنما أُضيف ليُحدث نوعًا من التوازن؛ فلما كان الاسم الذي يُعرف به هذا البطل وهو (حمزة العرب) لم تُسمَّ به السيرة، وإنما قُدِّم عليه (حمزة البهلوان)، جاء هذا الجزء الأخير ليخفف من وطأة هذه التسمية الأكثر قربًا للجانب الفارسي، وليربط شخصية البطل بالهوية العربية، وليوحي بأن البطل يُمَثِّل قيمًا وصفات مرتبطة بالثقافة العربية، وليجمع- أو يمزج- العنوان في النهاية أيضًا مفردات تنتمي للحضارتين معًا. فالإشارة إلى العرب في العنوان قد تكون محاولة لتأصيل سيرة حمزة البهلوان في السياق الثقافي العربي، على الرغم من تقديم التعريف باللقب الفارسي له في العنوان.

واللافت للنظر أن بعض الباحثين عمدوا إلى تغيير عنوان السيرة لتصبح (سيرة الأمير حمزة العرب) أو (ملحمة الأمير حمزة العرب) ظنًا منهم أنهم بهذا يحافظون على الانتماء العربي أو القومية العربية في

20 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص15.
21 (2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط3، 1985، ج1، ص321.
22 (3) نفسه: ص ص328-329.

مواجهة قوميات أخرى «وملحمة حمزة العرب: هي السيرة التي اشتهرت باسم (سيرة حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب)، وإن كنا نُؤثر أن نطلق عليها ملحمة (حمزة العرب)، وعلى بطلها حمزة العرب، لا حمزة البهلوان. ليس تجنبًا لما توحيه صفة بهلوان اليوم، أو تدل عليها بعض المعجمات اللغوية الحديثة. فالبهلوان- كما تحفل به المعاجم- هو البارع الذي يمشي على الحبل، بينما البهلوان الذي تعنيه الملحمة لقب أعجمي، أطلقه كسرى على الفارس العربي حمزة، ويعني: بطل الأبطال. وإنما نؤثر هذه التسمية لأمرين: أن الاسم الذي رافق حمزة بين قومه وطوال الملحمة تقريبًا هو اسم حمزة العرب، لا حمزة البهلوان. ثم إن هذا الاسم أقرب إلى الدلالة الملحمية في تشخيص البطل، وتحديد رسالته القومية والحضارية»[23](1).

إن ما قام به محمد رجب النجار ولاحظه في دراسته لسيرة حمزة البهلوان ليؤكد الفرضية التي تتبناها الدراسة من أن مذهب التكامل والاندماج بين الحضارة العربية والفارسية، هو القضية الرئيسة التي تنهض بها السيرة، وذلك من جهتين: أن سيرة تُحارب موجة الشعوبية الفارسية وتناضل من أجل القضاء والتخلص من ظلم الفرس ووطأتهم، لا ينبغي أن يضم عنوانها لقبًا فارسي الأصل (حمزة البهلوان)، لا سيما مع وجود لقب بديل (حمزة العرب) هو الأشهر والأكثر استخدامًا على مدار النص السيري. ثم إن كلمة دخيلة على العربية- فضلًا عن كونها فارسية الأصل- تُستخدم في تلقيب بطل السيرة وتوضع في عنوانها، ثم لا يتم تلقيب (حمزة) بـ(البهلوان) داخل النص السيري إلا مرات قليلة- نسبة إلى عدد صفحات السيرة- لأمر يبعث على التأمل في سبب استخدام تلك الكلمة الفارسية ضمن عنوان لسيرة/ ملحمة شعبية يُفترض أنها تقوم بالأساس على مناهضة الفرس ودحر الشعوبية والانتصار للقومية العربية. فلقد لُقب (حمزة) بـ(البهلوان) مائة وثمانين مرة، وزِّعت كالآتي: أربع عشرة مرة في الجزء الأول، وست وعشرون مرة في الجزء الثاني، وخمس وستون مرة في الجزء الثالث، وخمس وسبعون مرة في الجزء الرابع والأخير. فيما عدا ذلك، يُذكر اسم (حمزة) إما مجردًا من اللقب أو مقرونًا بلقبه المعروف (حمزة العرب). هذا فضلًا عن الحرص على أن يبدأ كل جزء من أجزاء السيرة بـ(الجزء... من قصة الأمير حمزة البهلوان) ثم ينتهي بـ(انتهى المجلد... من قصة حمزة العرب ويليه المجلد...)[24](2) والذي ربما يشير إلى إصرار على إحداث نوع من التوازن أو الجمع أو التكامل بين العنصر العربي والفارسي في

23 (1) محمد رجب النجار: البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، ص ص 89-90.

24 (2) فيما عدا الجزء الرابع، فقد بدأ بـ (الجزء الرابع من قصة الأمير حمزة البهلوان) وانتهى بـ(انتهى المجلد الرابع وبه تنتهي قصة الأمير حمزة البهلوان).

السيرة. وتتعدد الإشارة إلى الأصل/الجانب العربي لـ(حمزة)، إما على لسان الشخصيات في السيرة أو على لسان الراوي، فالوزير (بزرجمهر) هو الذي سمّى بطل السيرة بعد ولادته (حمزة) بناء على طلب من أبيه الأمير (إبراهيم)[25](3)، ثم أكد (بزرجمهر) مرة أخرى ذِكر (حمزة) بلقبه العربي عندما عاد إلى (كسرى) وقصَّ عليه ما حدث في رحلته للبحث عن منقذ دوله الفرس «وقال له إن وصولي إلى مكة قبل ولادة هذا المولود الذي نحن نقصد أن توصل إليه فأقمت إلى أن ولد ورأيته ورأيت ما أعطي من الله من الحسن البديع وما كتب على جبينه من الإقبال والسعادة وبعد أن رأيته قيدت اسمه من رجالك وتبعة دولتك وسميته حمزة العرب»[26](4). وكذا يشير الراوي قائلًا «ولنرجع إلى داخل القلعة حيث كنا تركنا صاحب هذه القصة وبطلها العظيم حمزة العرب مع رفيقه معقل البهلوان يقاسيان الوحدة وآلام السجن ولا يعرفان في أي يوم يكون خلاصهما ومن أي باب يتسهل لهما الخروج»[27](1). وبناءً على ما سبق، وإذا أُخذت القَصْدية في صَوْغ العنوان بعين الاعتبار، صار تقديم السيرة بوصفها محاولة للقضاء على الفرس أو الشعوبية نوعًا من التَّكَلُّف، لا سيما وقد صُدِّر اللقب الفارسي في العنوان ثم جاء اللقب العربي تاليًا له.

يُعد نقل النصوص الشعبية كما تلفظ بها رواتها، وتدوينها بالكيفية التي تُتيح للقارئ أن يتمثل دلالات كل لفظة أو صوت يحتوي عليه النص، مطلبًا رئيسًا يحاول جامعو التراث الشعبي تحقيقه ما أمكنهم ذلك؛ حفاظًا على النص الشعبي كما أرادته الجماعة المنتجة له، وإبقاءً على الإمكانات المبثوثة في ثنايا النص كافة، والتي تمثِّل طريقًا أو نسقًا كاملًا للنص سيحاول دارسو التراث الشعبي اكتشافه بعد ذلك. إلا أن بعض الباحثين قد يفعل خلاف ذلك بدافع الغيرة والحفاظ على الهوية العربية، فيضيع على الباحثين فُرصَ اكتشاف حقيقة النص وخفاياه واستنطاق مكنوناته، ويوجهه إلى مسار ربما يختلف عن المسار الذي من أجله أنتجته الجماعة الشعبية. ولعل أكبر تمثيل لهذا هو الحوار الذي تحدث به الأستاذ (يوسف الشاروني)، مخاطبًا (فاروق خورشيد) بشأن نجاح الأستاذ (عباس خضر) في تحويل عنوان السيرة من (حمزة البهلوان) إلى (حمزة العرب) «لقد نجح صديقنا الكبير الأستاذ عباس خضر أن يحول اسمها في صياغته المعاصرة لها إلى اسم حمزة العرب، وفي هذا الجيل اشتهرت بهذا الاسم. وهذا يُريك مقدار أهمية راوي العصر، ومدى تأثيره على النص الشعبي القديم، فقد يصل الأمر إلى إحداث تغيير

25 (3) انظر قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص8.
26 (4) نفسه: ج1، ص10.
27 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص304.

جذري فيه، والأستاذ عباس رأى أن كلمة البهلوان الفارسية وهي تعني البطل تُلقي بظلال فارسية على حمزة بطل السيرة، ففضل تسميته حمزة العرب ليعيد الانتماء العربي كاملًا إلى بطل السيرة»[28](2). وعليه فإن أي تغيير في النص المجموع أو المُدوَّن ربما يزيد النص ضبابية وغموضًا، لا سيما إن كان الجزء الذي أصابه التغيير في النص هو العنوان، ذلك الجزء المُقتضب والكاشف في الوقت ذاته عن أسرار النص ودلالاته. وهنا يعتقد الباحث أنه مع الإبقاء على العنوان دون تغيير، تصبح إشارة العنوان بشقَّيه- العربي والفارسي- إلى فكرة التكامل والاندماج بين الحضارتين قوية وواضحة، لا سيما مع ما يُظهره العنوان بهذا التأويل من اشتغال وتجلياتٍ داخل النص السيري، والتي سيتعرض الباحث لها تباعًا.

وعليه فإن الجمع بين المتقابلات في العنوان- كما يرى الباحث- لَيُشِيرإلى شخصية متعددة الأبعاد تعكس تاريخًا ثقافيًّا غنيًّا وتفاعلًا بين حضارات مختلفة، على الرغم من الصراع الذي يبدو واضحًا- بين الحضارتين العربية والفارسية- في المستوى السطحي للنص السيري، كما يوحي بمحاولة إيجاد مساحة للتكامل- على مستوى الهوية والثقافة والتقاليد المختلفة- والمزج بين الحضارتين في ظل السعي نحو السيطرة أو الهيمنة أو إثبات القوة والغلبة من كلا الجانبين.

قراءة العنوان من خلال مربع غريماس

يقف مربع غريماس- أو المربع السيميائي- بوصفه أداة فاعلة في الكشف عن البنية الأولية أو البنية العميقة للنصوص السردية؛ إذ إنه يقوم على العلاقات المنطقية بين المفاهيم المتعارضة في نص أو سرد ما، ولذا فهو أداة تحليلية مهمة في مجال السيميائيات السردية، تحاول الكشف عن البنية العميقة للنصوص السردية من خلال علاقات التضاد والتناقض والتضمين. كما يُمَكِّن المربع أيضًا من تتبع كيفية تحول المعاني وتطورها عبر النص، وفهم أدوار الشخصيات وعلاقاتها بتطور الأحداث في السرد. ويُعد غريماس «من السيميائيين الذين اهتموا كثيرًا بالأشكال الداخلية لدلالات النصوص، خاصة وأن هذه الأخيرة عبارة عن كيانات دلالية قائمة بذاتها لا تحتاج إلى معلومات خارجة عنها، لذلك فقد رأى أن الدراسة التحليلية الدقيقة للنص إنما تتم من خلال مستويين، المستوى السطحي والمستوى العميق الذي نحدد من خلاله البنيات العميقة التي تحدد الطريقة التي يكون عليها الوجود الأساسي لفرد

28 (2) فاروق خورشيد: في بلاد السندباد، دار الهلال، القاهرة، أغسطس 1986، ص ص 182-183.

أو لمجتمع، وبالأحرى وجود الموضوعات السيميائية، فما نعرفه هو أن المكونات الأولية للبنيات العميقة وضع قابل للتحديد. كما يرى (غريماس) أن المعنى يقوم على أساس اختلافي، وبالتالي فتحديده لا يتم إلا بمقابلته بضده وفق علاقة ثنائية متقابلة، وقد صاغ (غريماس) أفكاره هذه من خلال ما أسماه بالمربع السيميائي»[29](1).

وانطلاقًا من كون عتبة النص السردي عملًا موازيًا للنص ومتماهيًا معه في آن، فسيحاول الباحث تحليل عنوان السيرة استنادًا إلى مربع (غريماس)، ثم سيستنطق الباحثُ النص السيري ذاته، بحثًا عن الكيفية والآلية التي تشتغل بها كل علاقة من العلاقات الموجودة بين مكونات العنوان في النص السردي على حدة. وبداية، وبناءً على العلاقات التي بيَّنها الباحث سابقًا بين مفردات عنوان السيرة، فإنه يمكن التعبير عن العنوان من خلال المربع الآتي:

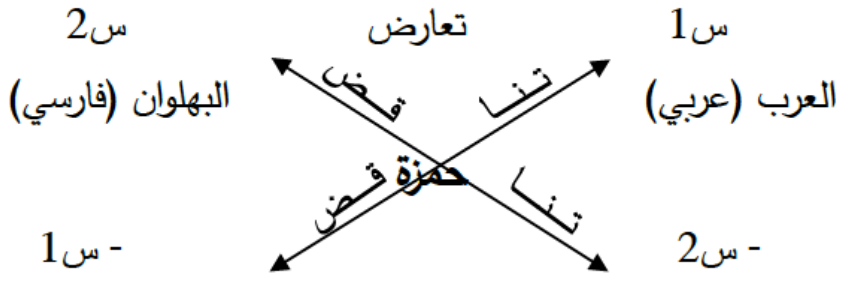

ويتضح من خلال الشكل السابق أن عنوان السيرة يتضمن ثلاث علاقات هي: علاقة التعارض أو التضاد بين (عربي) و(فارسي)، وعلاقة التناقض بين (عربي) و(لا عربي)، أو بين (فارسي) و(لا فارسي)، وعلاقة التكامل بين (لا عربي) و(لا فارسي). وفي سعيه لتأسيس مربعه السيميائي يؤكد (غريماس) أن العلامات السيميائية لا تُدرك بمعزل عن سياقها، كما أنها لا تُفهم على النحو الأمثل إلا بعد نَظْمِها في علاقات. فاللون الأبيض مثلًا لا يُدرك تمام الإدراك في غياب ضده- اللون الأسود- وكذا تُسهم علاقة التناقض (أبيض - لا أبيض) أو (أسود - لا أسود) في إدراكهما بصورة أوضح جنبًا إلى جنب مع الألوان الأخرى، فقولنا (لا أسود) لا يعني بالضرورة اللون الأبيض، فهناك درجات متعددة بين اللونين يمكن تصورها عند قولنا (لا أسود) والعكس صحيح. ويسميه البعض التناقض التدريجي، ليميزه عن التناقض الثنائي. أما علاقة التكامل (لا أسود - لا أبيض) فهي تلك العلاقة التي تشير إلى نفي الطرفين

29 (1) فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 229.

أو تَجَنُّب ما يميزهما في محاولة لدمج اللونين وانصهارهما فيصيران بعد التكامل لونًا جديدًا.

وتأسيسًا على ما سبق يستطيع الباحث مقاربة العلاقات الثلاث الموجودة في العنوان، ثم إدراك كيفية اشتغالها في النص السيري على النحو الآتي:

1- علاقة التعارض (التضاد): عربي - فارسي (س1 - س2)

قد يظن البعض أن علاقة التعارض بين (عربي) و(فارسي) تتجلى بشكل واضح في سعي الذات (حمزة) إلى القضاء على الفرس وتخريب بلادهم وهدم معابد النيران، لا سيما وقد سبق القول بأن الباحثين في مجال الدراسات الشعبية قد توافقوا على كون القومية العربية ومناهضة الشعوبية موضوعًا رئيسًا لسيرة الأمير حمزة البهلوان. ولا ينكر الباحث وجود هذه النزعة في السيرة، لا سيما في المستوى السطحي للسرد، فإنها تبدو في نبرة الاستعلاء الواضحة والنظرة الدونية الجَلِيَّة في كلام الفرس عن العرب ووصفهم بصفات سلبية، أو في السعي الحثيث للوزير بختك (المُعيق) للحيلولة دون وصول حمزة (الذات) إلى مبتغاه وهدفه، انطلاقًا من شعوره بدونية العرب وعدم أحقيتهم في أن يكونوا سواءً بالفرس. إلا أن هذه النزعة- رغم وجودها- فلا يعتقد الباحث بأنها ترقى لأن تكون موضوع القيمة في هذه السيرة؛ إذ لا تعدو كونها مبررًا أو دافعًا للسعي نحو التخلص من هذه النظرة الدونية ونفيها عن الذات العربية- وهذا حاصل بالفعل. ولكن المسار السردي الداعم للتكامل والاندماج والالتقاء بين الحضارتين- وهو مسار ثابت ومنتشر عبر مستويات عدة بين دفتي النص السيري، يستند إلى دعائم متنوعة سيتعرض لها الباحث تباعًا.

كما تجدر الإشارة إلى أن التعارض بين (عربي) و(فارسي) ليس تناقضًا ثنائيًّا، بمعنى أنه ليس غير العربي بالضرورة فارسي، وكذا ليس غير الفارسي يعني أنه عربي. وهذا يفتح بابًا للعلاقات بين ما هو (عربي) وما هو (فارسي)، فضلًا عن الحضارات والثقافات الأخرى غير الفارسية. كما أنه يُتصور الشيء نفسه مع ما هو (فارسي). والواقع أن هذا التصور لطبيعة العلاقة بين ما هو (عربي) وما هو (فارسي) أو حتى (غير فارسي) له صدى في سيرة حمزة البهلوان، فقد تعددت المواضع التي ذكر فيها القاص الشعبي تنوع/ تكامل الجنسيات الموجود داخل جيش الأمير حمزة "فاستصوب الجميع كلامه ورأيه وعولوا عليه إلى أن كان بعد عشرة أيام ركب الملك العربي وهو قباط ابن الأمير حمزة ابن إبراهيم ورفع فوق رأسه علم بيكار الاشتهار ومشى بين يديه الخدم والعيارون واحتاط به الحرس من كل ناح ومشت الفرسان وكل

قبيلة تحت أمر سيدها وتحت علمها المخصوص فمن مصريين وأحباش ورومان ويونان ومغاربة وسودان وسوريين وهنود وأكراد وتركمان إلى غير ذلك من كثرة الأجناس وتنوعها"[30](1). وتتعدد الطرق التي يشير بها القاص الشعبي إلى هذا التنوع وذلك التكامل بين الجنسيات المختلفة في جيش الأمير حمزة، فتارة يَذكرُ تعدد الجنسيات الموجودة داخل الجيش كما سبق، وتارة أخرى يذكر قائد كل قبيلة أو جنسية أو فئة على حدة بشيء من التفصيل، سارداً بعض مميزاته وما يتفرد به، لتتكون في ذهن المتلقي صورة كاملة عن لحمة جيش الأمير حمزة البهلوان" وبعد ذلك قال الأمير سعد حيث قد عرفت الآن أبي وهو الأمير حمزة سيد السادات وأعلم من الناس أنه على الدوام مع كسرى في حروب وأهوال فلا بد لي من أن أذهب إليه وأقيم مع قومه ولا أعلم أين هو الآن. وإذ ذاك تقدم إليه أحد الحاضرين وقال إن أباك هو الآن في حلب أو المدائن يحاصر كسرى وعنده من الفرسان كثيرون منهم الأندهوق بن سعدون صاحب سرنديب الهند ومعه ثلاثة ملوك التركمان وعنده أيضًا المعتدي حامي السواحل نادر المثال ومن أبطاله أيضًا فرهود صاحب التكرور وقاهر الخيل وبشير ومباشر وأصفران الدربندي ومعقل البهلوان صاحب قلعة تيزان والأمير الغضبان والصيصان وعمر الأندلسي أمير الغرب والملك النجاشي سلطان الحبشة فضلًا عن أن أولاده كل واحد يلقى جيشًا وحده فأخوك الأكبر اسمه عمر اليوناني وقد تزوج بطوربان بنت عم كسرى أنوشروان وهي من أصحاب الشجاعة والبسالة وقد جاء ولد منها اسمه سعد اليوناني آفة من الآفات وبلوة من البلوات وأعظم فارس في العرب هو أخوك رستم فرتم بن بنت الملك قيصر وقد قتل داهور الهندي فهو أشد من أبيك بأسًا وإقدامًا ولا يمكن أن يثبت بين يديه فارس في هذا الزمان لا من الإنس ولا من الجان وأما أخوك قباط من مهردكار فهو سلطان العرب وحاكمهم وسيدهم وصاحب الأمر والنهي فيهم وفيهم عمر العيار الذي لا يصطلى له بنار فخر العرب وعلة نجاحهم..."[31](1). وتارة ثالثة يشير فقط إلى تعدد الجنسيات داخل الجيش، وما يسببه ذلك من رعب في قلوب أهل البلدان التي يصلها الجيش، دون الخوض في أي تفصيلات أخرى "ولما وصل الأمير حمزة إلى بلاد الملك هندام انتشر خبره في كل البلاد فجفل الأهالي وهرب الكبير والصغير إلى جهة المدينة وهم يتعجبون من كثرة العساكر وعظم ذاك الموكب الجسيم مع اختلاف أجناسه"[32](2).

ومجمل القول أن علاقة التعارض (التضاد) وقد تمثلت بوضوح في عنوان السيرة - من خلال وجود

30 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج2، ص337.
31 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج3، ص ص50-51.
32 (2) نفسه: ج3، ص31.

العنصر العربي والفارسي مُدمجين معًا في اسم بطل السيرة ولقبه، ومن خلال إضافة الاسم مرة أخرى إلى اللقب العربي- ثم تَجلَّت في النص السيري ذاته عن طريق الصراع الظاهري بين الطرفين- ذلك الصراع الذي يؤججه دائمًا الوزير (بختك) بوصفه المعيق للذات، ومن بعده ابنه (بختيار)- هذه العلاقة يمكن تقسيمها إلى ثلاثة مستويات أو مراحل رئيسة، المستوى الأول (المرحلة الأولى) هو نفي النظرة الدونية للعرب من قِبل الفرس، والإقرار بما للعرب من فضائل ومميزات شأن سائر الأمم. ويفسر هذا الكم الهائل من عبارات الذم والانتقاص من حق العرب إما على لسان الفرس أنفسهم أو على لسان الشخصيات العربية التي تحاول نفي هذه الصفات، فالسيرة تعج بالجمل والعبارات الدالة على استصغار الفرس للجنس العربي ووصفهم بأرذل الصفات، ومن ذلك ما حكاه القاص الشعبي عن شعور الوزير (بختك بن قرقيش) تجاه الملك (النعمان) بسبب بشارته للملك (كسرى أنوشروان) بظهور البطل العربي الذي سينقذ عرشه ويحمي بلاده من عدوه "فتكدر الوزير بختك بن قرقيش من ذلك وقال لكسرى لقد نسيت يا سيدي حالة العرب وما هم عليه من الهمجية وعدم الأمانة فإذا أكرمتهم لا تأمن من جانبهم وكان هذا الوزير رديء الطباع حسود طماع بخيل مبغض لا يحب أحدًا فغاظ كلامه هذا الملك النعمان إلا أنه صبر عليه لمعرفته بأن منزلة العرب عند الأعاجم منزلة العبد الذليل عند السيد البخيل كثير الكبر والتعجرف"[33](1) ويظن الباحث أن بإمكانه أن يُصنِّف هذه الجملة- بالإضافة إلى جملة أخرى سيرد ذكرها لاحقًا- بمثابة الجملة النواة، فهي تصلح مُرتكزًا ينطلق منه النص السيري ليبني عالمه وتفاصيله المتشابكة؛ إذ إنها تجمع بين نظرة الاحتقار التي ينظر بها الفرس للعرب، مع الشعور بالدونية والصغار من العرب أنفسهم. لكن، وعلى الرغم من كثرة ترداد الجمل والعبارات التي تدعو إلى الخلاص من الفرس وهدم معابد النيران، فإن السيرة قد عُنونت باسم بطلها العربي مقرونًا بلقبه الفارسي، في إشارة إلى أن المقصود من العبارات الداعية للخلاص من الفرس وهدم معابدهم (في المستوى السطحي) ليس القضاء عليهم كما قد يبدو للوهلة الأولى، وإنما القضاء على الغطرسة الفارسية والتخلص من النظرة الدونية التي ينظرون بها إلى العرب. والمتتبع للنص السيري يجده مليئًا بالدعوات إلى الاندماج مع الآخر (فارسي أو غير فارسي) كما سيظهر في الحديث عن علاقة التكامل.

وفي مقابل انتشار هذه الجمل والعبارات الداعية إلى الحط من شأن العرب تَصْطَفُّ جمل وعبارات أخرى- تكاد تكون بالقدر نفسه- للدفاع عن شرف العرب وذِكر فضائلهم، ولإظهار احتياج الفرس

33 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص51.

للعرب وضرورة الاعتراف بمقامهم.

أما المستوى الثاني الذي تهدف إليه علاقة التعارض (التضاد) بين (عربي - فارسي) فهو مرحلة تالية لنفي النظرة الدونية عن العرب. وتتمثل هذه المرحلة إما في ذِكر الدفاع عن شرف العرب بصورة مباشرة، أو في سرد فضائل العرب وما يمتازون به من خصال، مع تبرير بعض السلبيات الناتجة عن طبيعة المجتمع البدوي، أو في ذِكر تَخَلّي الفرس عن الاستهزاء بالعرب والسخرية من هيئاتهم وأفعالهم كما كانوا يفعلون قديمًا. وسيعرض الباحث هذه التنويعات الثلاث التي اعتمدها القاص الشعبي في السيرة لتحقيق هدف الدفاع عن شرف العرب:

1- ذِكر الدفاع عن شرف العرب بصورة مباشرة

بعد انتهاء المرحلة الأولى لنفي النظرة الدونية عن العرب، كان من الطبيعي أن تشرع المخيلة الشعبية في إثبات الشرف العربي وتثبيت مقام العرب بين الأمم المختلفة. وعليه فقد وظَّف القاص الشعبي الممثلين في النص السيري لينطقوا صراحة، وبشكل مباشر بأنهم يدافعون عن شرف العرب ويحفظون كرامتهم "ودامت الحرب على مثل تلك الحال إلى أن قرب الزوال فضربت طبول الانفصال ورجع حمزة برجاله والدماء تغطي جسده وهو كأنه الليث الخارج من الغاب فتلقاه الملك النعمان بالأحضان وقبله ما بين عينيه وشكره كل الشكر وأثنى عليه وقال له بالحقيقة إنك فارس هذا الزمان ومنشئ شرف العربان فلله درك من فارس أوحد وبطل أمجد فقال له حمزة إني أقاتل لإحياء شرف بني جنسي ورفع مقامهم إلى أوج الفخار"[34](1). إن التصريح بمحاولة إحياء شرف العرب ليعني بمفهوم المخالفة أنه كان ميتًا، كما أنه يُثبت أيضًا بالضرورة أسبقية وجوده وأن العرب أمة ذات شرف ومقام بين الأمم، وهو ما تحاول الجماعة الشعبية أن تُثبته على مدار النص السيري. ولم يكن التصريح بشرف العرب والدفاع عنه قاصرًا على المحاورات بين العرب وبعضهم، بل كانوا يتحدثون بذلك مع غير العرب أيضًا، وفي المكاتبات الرسمية بين الملوك والأمراء "وبعد ذلك تقدم عمر وسلم الكتاب إلى الملك كسرى فدفعه إلى وزيره بزرجمهر ليقرأه عليه وإذا به: من الأمير حمزة عابد الرحمن ومبيد أهل الكفر والطغيان ورافع شرف العربان إلى الملك كسرى أنوشروان صاحب التاج والإيوان"[35](2).

2- سرد فضائل العرب وما يمتازون به من خصال

يتكرر في السيرة وصف العرب بأنبل الصفات وأفضل الشمائل، سواء على لسان العرب (مثل حمزة أو

34 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص65.

35 (2) نفسه: ج1، ص71.

عمر العيار) أو غير العرب (مثل بزرجمهر وأسطفانوس حاكم القسطنطينية)؛ ليدفع القاص الشعبي بذلك سيئ الصفات عن العرب، ويثبت لهم من الصفات ما يفخرون به بين الأمم. لقد نجح (حمزة) في تخليص المدائن من يد (خارتين) بعد أن استولى عليها وسلب ما فيها من كنوز وخيرات، فلما استقر الأمر وثبت لدى جيش العرب نجاحهم في استرداد البلاد من المحتل، أشار الملك (النعمان) على (حمزة) أن يأخذ ما في خزائن الدولة من أموال بوصفها غنيمة حرب، فقال (حمزة): "هذا لا أوافق عليه ولا أريده فهو الآن في قبضة الملك كسرى وصار ملكه لأننا نحن نقاتل عنه وله كل ما يقع بأيدينا فهو من ماله دون شك فإن أنعم علينا كان خيرًا وإلا فإننا في غنى عن ذلك لأظهر للفرس عفة نفوس العرب ولكي لا يقال عنهم إنهم لصوص وطماعون فانتبه النعمان إلى كلامه ووعاه وعرف أن الحق بيده وأن الله قد جمع به كل خصائل حميدة وجمله بأحسن الصفات وأبهاها"[36](1). فتنازل (حمزة) عن أموال (خارتين) التي تجوز له - إذا ما حكَّمنا أعراف الحروب وتقاليدها - من أجل تحقيق غاية أكثر أهمية من جمع الأموال، أن يستقر لدى الأمم الأخرى ما للعرب من فضائل وشرف. بل إنه منع جنوده من العرب أن يدخلوا المدائن أو يستظلوا بظلها أو يتنعموا بنعيمها إلا أن ياذن لهم (كسرى) بذلك، وأرسل إليه خطابًا يقول في جزء منه: "وقد بعثت إليك مع عياري عمر وهو أيضًا من رجالك رأس خارتين لتدوسه برجلك وتتحقق موته وإني باق في المدينة على انتظارك حتى تأتي وتستلم كرسيك وأموال عدوك فإنها باقية على ما هي لم يمد أحد إليها يد ولا زالت عساكر العرب قائمة خارج البلد لم تدخل قط إلا إذا أمرتها أنت والسلام مني إليك"[37](2). وبالإضافة إلى ذلك، فإن (عمر العيار) لما ذهب إلى (كسرى) في طهران، حاملًا رسالة (حمزة) إليه ومبشرًا باسترداد بلاده من عدوه، فقد وعد (كسرى) (عمر) بالمكافأة عند عودته إلى المدائن نظير هذه البشرى، وعندما عاد أمر (كسرى) بأن يُعطى (عمر) ألف دينار مكافأة له على بشراه، فسأله (عمر) أن يزيد مكافأته لأن لديه عددًا كبيرًا من العيارين الذين ينتظرون رجوعه إليهم وإنفاقه عليهم، فأعطاه (كسرى) عشرة آلاف دينار بدلًا من ألف، وعندما أخبر (عمر) الأمير (حمزة) بما جرى له مع (كسرى) "تكدر الأمير حمزة من ذلك وقال لِمَ هذا العمل فإنه مهين بشأن العرب ويظن الأعجام أننا شحاذون نقصد أخذ المال منهم بالخداع والحيلة وهذا مما لا يرضيني فإياك من العودة إليه ثانيًا وعندي أن تذهب بالمال إلى الوزير بزرجمهر وتخبره أن يعيده إلى كسرى فإننا في غنى

36 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص69.
37 (2) نفسه: ج1، ص71.

عنه وما من حاجة لنا فيه لأنه لم يكن على سبيل الإنعام عليك منه بل أنت طلبته على سبيل السؤال منه قال لم يبق معي من الذهب ولا واحد قال أين ذهبت به قال أنفقته في سبيله ثم حكى له ما كان منه ومن أصحابه فضحك حمزة وتركه وأوصاه أن لا يعود ثانيًا إلى مثل هذا العمل"[38](1). لقد كان العقل الجمعي حريصًا على أن تظهر العرب في مكانة مناسبة بين الأمم والحضارات المختلفة، مما حدا بالقاص الشعبي في نسجه للسيرة إلى التخلي عن كل ما من شأنه زعزعة مقام العرب على الصعيد الحضاري بين الأمم المختلفة، فضلًا عن الترفُّع عما يمكن أن يُعد مباحًا في هذا الباب. أما عن ذِكر فضائل العرب على لسان غيرهم، فقد وظّف القاص الشعبي غيرواحد من الممثلين لينطق بفضل العرب وشرفهم، فقد حكى (بزرجمهر) لسيده (كسرى) عن أفعال حمزة وتَرَفُّعه عن أن يصيب بعضًا من أموال (خارتين)، كما أخبره أنه لم يسمح لقومه بدخول المدائن وحرص على أن يبقى بينهم حتى تأتي وتتسلم ملكك، ثم أنهى كلامه بأن هذا إنما يشيرإلى ما تتصف به العرب من عزة النفس وعفة الجانب. بل وعارض الوزير (بختك) -المعيق- عندما حاول أن يُلصق بالعرب بعض الصفات كالسلب والنهب والسبي، محاولًا الإشارة إلى المزيد من الصفات الإيجابية التي يتحلى بها العرب، ومُؤَوِّلًا إغارة قبيلة عربية على أخرى بأنه نوع من اكتساب المال بقوة السيف، ولا يُعد سرقة[39](2). واستمر القاص الشعبي في استنطاق مُمثليه بفضل العرب وحميد خصالهم، حتى وإن كانوا على غيردين التوحيد الذي يدين به العرب، فهذا الملك (أسطفانوس) حاكم القسطنطينية الذي كان على دين النصرانية، يشيد في مجلسه بالعرب وما يتصفون به من كريم الخصال، ويستصغر صفاتهم السلبية- كالسلب والنهب والإغارة على بعضهم- إذا ما قورنت بالجانب الإيجابي فيهم، ذلك الجانب الذي يفاخرون به سائر الأمم والحضارات ويتقدمون عليها، فقال محدثًا وزراءه ورجال حكومته: "اعلموا أيها السادات الكرام أننا نعرف أن العرب قوم اعتادوا على المروءة والوفاء وحفظ الناموس يبذلون نفوسهم في شرف ناموسهم، وإن كانوا يسكنون البادية وهم على غير شيء من العلوم والمعارف ويعرفون الشعر فيتغزلون ويتحمسون دأبهم السلب والنهب والغارات على بعضهم بعضًا لكن مزية تأمين الجار وإغاثة الملهوف لا تقاس بها فضيلة فهم على هذه أفضل من غيرهم بكثير يحق لهم أن يباهوا على الأكاسرة وكل طوائف الأرض"[40](1).

38 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص77.
39 (2) نفسه: ج1، ص75.
40 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص202.

جـ- تَخَلّي الفرس عن الاستهزاء بالعرب والسخرية من هيئاتهم وأفعالهم

يُعد استهزاء الفرس بالعرب أو السخرية من هيئاتهم وأفعالهم- بوصفهم بدوًا- تجليًا من تجليات النظرة الدونية التي سيطرت على العلاقة بين الحضارتين، إذ اعتاد العرب منهم ذلك، حتى طبقة الأمراء العرب لم تسلم من استهزاء الفرس وسخريتهم، فكانوا يصبرون على ذلك مضطرين؛ لخضوع العرب تحت حكم الفرس ورعايتهم. فلما أن جاءت أيام سَعْدِ العرب، وحان وقت قيام شرفهم بين الأمم، أصرَّ العرب على تغيير السلوك الفارسي تجاههم، ورفضوا الأفعال التي من شأنها إذلال العرب وإهانتهم والحط من قدرهم. ولعل الإشارة إلى هذا في السيرة واضحة، فبعد أن استرد (حمزة) المدائن من يد (خارتين)، وعاد (كسرى) إلى المدائن ليتسلم مُلكه، دعا (كسرى) (حمزة) أن يأتي إليه ليكرمه ويحتفل به، فأرسل له الوزير (بزرجمهر) فقابله (حمزة) ورحَّب به وعزم على قبول الدعوة، إلا أن الملك (النعمان) اعترض قائلًا: "إن ذلك لا يوافق وقد يحصل منه سبب وربما تخرب لأجله المدائن ويقع مما ليس في الحساب فقال حمزة وكيف ذلك قال اعلم أن العجم متكبرون ولا يعاملون العرب إلا معاملة الهزء والسخرية فإذا دخلنا المدينة على مثل دعوة الملك وإذا جلسنا في ديوانه فلا بد من أن أحدهم يضحك علينا ومنا وإني أعرف ذلك وقد وقع معي مرارًا فما صبر عليه حتى إن صغيرهم كان يضحك علي كأني موضوع الهزء إلا أنك إذا شاهدت أنت ذلك ووقع عليك أو على أحد أتباعك لا تصبر عليه فتلتزم إلى إشهار السلاح ويقع بيننا وبين الأعجام ما يكدرنا ويغيظنا ويغيظ الملك أيضًا فإذا شاء الملك كسرى ومنع قومه من استعمال هذه العادة التي اعتادوا عليها ومن تجاسر علينا قتلناه فلا يطالبنا أحد بدمه دخلنا وإلا فإننا لا نرى كسرى ولا مواجهته وقد حان الزمان الموافق لقيام شرفنا ومنع ذلنا من هذه الطائفة التي احتقرت عباد الله وكرمت عباد النيران من أبناء جنسهم"[41](1). فما كان من (كسرى) إلا أن بعث في أسواق المدينة ليحث الناس على أن يبدوا استحسانهم من أعمال الأمير (حمزة) وأتباعه، ويحذرهم من الاستخفاف بهم أو السخرية منهم، وأن من يفعل هذا منهم فقد أباح دمه، فإن لم يقتله (حمزة) قتله (كسرى) بنفسه[42](2). إنه إذن الإصرار على إقرار شرف العرب والتأكيد عليه من خلال تنويعات ثلاثة، التصريح المباشر بالدفاع عن شرف العرب، ذِكر شرف العرب ومناقبهم وشمائلهم على لسان غير العرب، ثم إجبار الأمم الأخرى على

41 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص ص 77-78.
42 (2) انظر: المرجع نفسه، ص 78.

احترام العرب وعدم الانتقاص من شأنهم أو الحط منهم.

ويمثل المستوى الثالث قمة الهرم المكوّن لعلاقة التعارض (التضاد) بين عربي ↔ فارسي، إذ به تتم الغاية ويتحقق الهدف من هذه العلاقة. إنه المستوى الذي تثبت فيه المخيلة الشعبية مدى احتياج الفارسي للعنصر العربي، نِدًّا ونظيرًا، يمده بما ينقصه ويفتقر إليه لتستقيم حياته وتنضبط شئونها. وقد عبرت السيرة عن احتياج الفرس للعرب في مواضع عدة، فبعد أن تغلَّب (حمزة) على الملك (النعمان) وضمَّه بجنوده إلى جيشه، نصحه الملك (النعمان) بألا يسير إلى المدائن من تلقاء نفسه، وأن عليه أن ينتظر حتى يُعلن (كسرى) احتياجه له، فإذا حدث ذلك، ونجح (حمزة) في تخليص بلاده من عدوه (خارتين) نال بذلك المقام الرفيع لدى (كسرى) وأثبت أن وجوده ضروري لحماية بلاده واستقرار مُلكه " فقال النعمان إني لا أشور عليك الآن بالمسير إلى بلاد الأعاجم لأن كسرى كثير الجند والأعوان وبلاده واسعة جدًا لا يكاد ملك من ملوك العالم يقارنه أو يعادله مالًا ورجالًا فإذا سرنا إليه لا نكفل النجاح ولا خفاك أن العجم كثيرة الحروب وعلى الدوام تطلب مساعدة العرب ويسألني ملكها المسير إليه بعساكر العرب فإذا سرت أنت معي لا سيما وأن الوزير بزرجمهر قد أخبرني أنه يحتاج إليك ويرضى فيك (كذا) ولا بد من أن تجلو العدو عن بلاده ذات يوم وقد رأى حلمًا من نحو 18 سنة تقريبًا ففسر له هذا الوزير من أن عدوًا يخرج عليه من حصن خيبر ويملك المدائن فتطرد له هذا العدو وتعيد إليه بلاده وهذا لا بد منه فاذهب الآن إلى بلادك وأقم عند أبيك إلى حين احتياجك فيرسل يستنجدك ويدعوك إليه فتنال بذلك الشرف والفخار ويكون لك عنده العظمة والاعتبار ويرى من نفسه أنه محتاج إلى الانقياد إليك إرهابًا بك ولجميلك معه. قال حمزة لقد أصبت بذلك..."[43](1). لقد وصل الوعي الجمعي مرحلة من النضج يدرك فيها الوقت الملائم لتقديم العون والمساعدة، بحيث يحقق ما يتوافق وطبيعة الجنس العربي من إغاثة الملهوف وإجارة المستجير، وفي الوقت ذاته يحفظ للعروبة مكانتها ويرفع مقامها. ولم يكن العرب وحدهم الذين يسعون إلى إثبات احتياج الفرس للعرب، بل وظّف القاص الشعبي الممثلين من الشخصيات غير العربية لتؤكد هذه الفكرة فتكون أوقع في النفوس لصدورها من غير جنس العرب، فهذا (حمزة) يشكر (بزرجمهر) لذِكره ذلك في مجلس (كسرى) قائلًا: "فصيرت لي مقامًا عند الملوك الكبار وذكرتني عند كسرى حتى يرى من نفسه أنه محتاج إلى مساعدتي وعليه فلا أبخل بروحي في سبيل أنت وعدتني لأسلكه وأسير فيه فتعجب الوزير من كلامه وفصاحة لسانه وقال له سوف يكون لك المقام الأول في زمانك وتسود على كل

43 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص48.

قائم وقاعد ولست أنا الذي رفعت مقامك وذكرتك عند الملك كسرى بل إن الله سبحانه وتعالى أظهر له ذلك قبل وجودك في الوجود وسخرني لأخبر به وأسعى في تربيتك على حساب الملك كسرى لتكون من رجاله وتخلص له بلاده..."[44](2). ويكاد يكون هذا السعي إلى إثبات احتياج الفرس للعرب هدفًا محوريًّا أو موضوع قيمة في ذاته، عبَّر عنه النص السيري بوصفه سببًا من أسباب رحلة الذات (حمزة) إلى المدائن "وهو فرحان بنفسه كل الفرح يكاد يطير شعاعًا أولًا لحبه بخوض مثل هذه المعمعة ورغبته بالحرب والقتال وثانيًا ليرى الفرس شجاعة العرب ويدعوهم إلى الاعتراف بأنهم أشد منهم بأسًا وأعلى مقامًا"[45](1).

2- علاقة التكامل (الاندماج): لا فارسي - لا عربي (- س2 - - س1)

تُعد علاقة التكامل - تلك العلاقة الذهنية العدمية - التي ينتفي معها الطرفان، أو يختفي فيها ما يميزهما، علاقة افتراضية يمكن رصدها من خلال مربع (غريماس) في أثناء مقاربة عنوان السيرة سيميائيًّا. فكما يُظهر المربع ما بين العناصر المكونة للعنوان من تعارض (تضاد) بين (عربي) ↔ (فارسي)، ذلك التعارض الذي كان له صدى طوال النص السيري - كما بيَّن الباحث في علاقة التعارض- فإنه يفترض أيضًا علاقة منطقية مؤداها طرف أول لا ينتمي إلى الجانب الفارسي (لا فارسي) في مقابل طرف آخر لا ينتمي إلى الجانب العربي (لا عربي)، في إشارة إلى درجة من التماهي بين الجانبين، أو التخلي عما من شأنه أن يُحدث تمايزًا يؤدي إلى الفُرقة والاختلاف. وعلى الرغم من أن هذه العلاقة في شكلها التجريدي - كما تظهر على المربع السيميائي- قد تبدو أكثر ميلًا إلى جانب التنظير والتقعيد منها إلى الناحية التطبيقية أو الواقعية، فإنها- ومع الغوص في تضاعيف النص السيري- يتضح أنها أولًا، مُتحققة ومُطبقة، ثم أنها ثانيًا، تدعم المسار الذي تنتهجه السيرة، ذلك المسار الداعي- كما تفترض الدراسة- إلى الاندماج والتكامل بين الأمتين العربية والفارسية. والمتأمل لهذه العلاقة يدرك أنها خطوة تالية ومُكملة لعلاقة التعارض الأولى؛ إذ إنه بعد أن أثبتت الذات الجمعية (عربي) من خلال العلاقة الأولى انفرادَها واستقلالها عن التبعية لـ (فارسي)، وأنها ذات مستحقة لأن تكون مُناظرة ومكافئة لغيرها، انتقلت المخيلة الشعبية في مرحلة أخرى تدعو إلى التعايش والاندماج والتكامل مع الفرس والأمم والحضارات المختلفة أيضًا. وسيعرض الباحث محاولته لتتبع تجليات هذه العلاقة في النص السيري، والآليات التي لجأ إليها القاص

44 (2) نفسه: ج1، ص58.

45 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج1، ص ص58-59.

الشعبي في تثبيت هذه العلاقة وتأطيرها في ثنايا النص.

باستقراء سيرة حمزة البهلوان تبيَّن للباحث أن علاقة التكامل (الاندماج) تتجلى من خلال النص عبر مستويات عدة، يمكن حصرها في الآتي:

- تكامل/اندماج بين العرب والأمم الأخرى.
- تكامل/اندماج بين العرب والفرس.
- التكامل والاندماج على مستوى الممثلين أو الشخصيات (حمزة وعمر العيار).
- التكامل على مستوى سلوك الممثل أو الشخصية.
- التكامل في نموذج شخصية المرأة في السيرة.
- في معنى التكامل العام.
- ألفاظ متنوعة دالة على معنى التكامل/الكمال.

وسيركز البحث على عرض محور التكامل/الاندماج بين العرب والفرس.

التكامل/الاندماج بين العرب والفرس

ويشير هذا المستوى إلى المساعي المترددة في السيرة، والتي تدعو إلى الاختلاط والاندماج والتكامل فيما بين العرب والفرس- الموضوع الرئيس للسيرة- وبإثبات هذا المستوى وتلك العلاقة، يصبح من الصعوبة بمكان أن يزعم البعض بأن سيرة الأمير حمزة البهلوان إنما تنهض بقضية محورية مؤداها الصراع مع الفرس والقضاء عليهم؛ إذ لا يُتخيل أن تتعدد تجليات علاقة التكامل والاندماج بين الأمتين في نص سيري يُفترض أنه يدعو لصراع وجود بين الحضارتين، كما أنه لا يستقيم لذي لُب- في ظل الدعوة إلى الصراع- ما فعله (حمزة) بـ(فرمزتاج) ابن عدوه (كسرى) بعدما نجح في أسْرِه، حيث "أمر في الحال أن يقدم إليه فرمزتاج بن كسرى فأتى به وحالما دخل إلى الصيوان نهض حمزة واقفًا وتقدم إليه وفك وثاقه بيده وقال له لم يهن علي أيها الملك العظيم أن تهان ويصل إليك الأذى وأنت ابن كسرى أنوشروان وأخو مهردكار وإننا نحن العرب وإن تكن الحرب بيننا وبينكم قائمة فقد فزنا عليكم وفي وسعنا أن نبيد دولتكم لكننا لا نزال نعتبركم حق اعتباركم ونعرف مقامك فهو مقدم على كل مقام ولو نظر أبوك موضع النظر ووعى إلى صالح نفسه لما عمل على عداوتنا بعد أن خدمته حق الخدمة وخلصت له بلاده من عدوه خارتين... ثم إن الأمير حمزة أجلس فرمزتاج في مكان مرتفع عن الجميع وأمر أن يقدم إليه كل إكرام واحتفال وعظم

شأنه"[46](1). إن سلوكًا كهذا لا يُتصور حدوثه مع عدو لا فِكاك من عداوته، بل هو نوع من السلوك الذي يُرجى معه تقريب المسافات وإنهاء الخصومات والعداوة، وهو ما فهمته (مهردكار) من سلوك (حمزة) مع أخيها، فقد كانت "مسرورة جدًا من عمل أخيها وفي الاتفاق الذي رأته بين الأمير وبينه وهي لا تعرف من نفسها بماذا تكافئ الأمير حمزة على معاملته لأخيها تلك المعاملة ومحبته له وأملت في ذاتها أنه ربما ينتهي الخصام بين العرب والعجم إذا رجع فرمزتاج إلى أبيه وأخبره بما فعله معه وعامله به الأمير حمزة"[47](1).

ولم يكن هذا السلوك أو تلك المساعي من العرب وحدهم، بل كانت متبادلة بين العرب والفرس على حدٍ سواء. فكما كان سعي (حمزة) دائمًا ومن خلفه العرب إلى التقارب والوفاق بين الجانبين، كانت جهود الجانب الفارسي أيضًا، سواء كان ذلك في فترة حكم (كسرى) أو حتى ابنه (فرمزتاج)، غير أن وجود البطل المعيق- الوزير بختك ومن بعده ابنه بختيار- اقتضى تحوُّل (كسرى) وابنه عن الصلح والاندماج مع العرب إلى معاداة وحروب رافضة الاعتراف باستقلال الذات العربية وانفكاكها من رِبْقَةِ التبعية. ويؤكد ذلك ما فعله (كسرى) عندما أرسل وزيره (بزرجمهر) إلى معسكر العرب ليطرح عليهم اقتراح المصالحة والاندماج بين العرب والفرس، فما كان من (حمزة) إلا أن قال: "إننا نحترم قدومك علينا فلا نعيدك بالخيبة فأخبر كسرى أننا صالحناه ولا نريد منه شرطًا غير أننا لا نرحل عن بلاده بل نبقى نحو شهرين بعيدين عن المدينة مقدار نصف ساعة فيمكن لرجالنا أن يدخلوا المدينة ولرجال الأعجام أن يأتوا معسكرنا دون أن يكون بيننا من العداوة ما يمنع ذلك، ومن ثم نرى ما يكون من أمره وهل أن باطنه صفا إلى الغاية. ويمكن في هذه المدة أن نرتاح نحن أيضًا من أتعاب السفر"[48](2). فلما عاد (بزرجمهر) أخبر (كسرى) بما كان من أمر العرب، مستخدمًا كلمات دالة على الاندماج والتكامل، مثل: (أجابوا إلى الصلح) أو (قبلوا الصلح) أو (اختلاط العسكريين) أو (وكل ما مضى يكون منسيًّا). فأصاب (كسرى) من السرور ما أصابه لسماعه ذلك من وزيره، ثم عقّب بكلمات تشير إلى ما هو أكثر من الاندماج والتكامل، إذ قال إن عليه في هذه الفترة أن يجد طريقة للوصول إلى (مرضاة العرب)[49](1).

وإن كان كلام (كسرى) في الموقف السابق لم يتجاوز حديث النفس، أو التشاور مع رجاله المقربين،

46 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج2، ص98.
47 (1) قصة الأمير حمزة البهلوان: ج2، ص99.
48 (2) نفسه: ج2، ص341.
49 (1) انظر قصة الأمير حمزة البهلوان: ج2، ص ص341-342.

فإنه في موقف آخر لم يأنف أن يصرح لـ(حمزة) بندمه على ما صار بينهما من العداوة والخلاف، وأنه عازم على أن يعمَّ السلام بينهما وأن يُفسح مجالًا للقُرب والتوافق، ولا مانع لديه من تسليم (بختك) سبب كل الشرور والعداوة "قال إني لا أمانع في أمره فافعل ما تريده وكفى بأنك عفوت عني وأربحتني حياتي وسأكافئك إذا بقيت حيًا وأزوجك من نسلي وأعيد لك الزمان الذي كنت تؤمله بقربي وإن كنت في زمن الكبر وسترى بعد عودتي إلى وطني واستوائي على عرشي ما يكون بيننا من الخير الذي يعقب تلك الشرور... ثم أحضر الأكل فأكلوا معًا وزالت من بينهم الضغائن وعادت إلى السلام والأمان ولم يبق في قلب كسرى مقدار ذرة من البغضاء ونوى كل النية على مكافأته على معروفه"[50](2). وهكذا يحاول الوعي الجمعي على مدار السيرة إثبات أن الدعوة إلى التكامل والاندماج هي دعوة من الطرفين (العربي والفارسي)، وليس لطرف فيهما فضل على الآخر، فتارة يدعو القاص الشعبي إلى الاندماج والوفاق ونبذ الخلاف على لسان فاعل عربي، وأخرى يُجري فيها الدعوة إلى نسيان الماضي وإنهاء العداوة على لسان مُمثل فارسي، فتتوزع الدعوة إلى التكامل والاندماج بين العرب والفرس على أجزاء السيرة الأربعة[51](3).

الخاتمة

لقد حاولت هذه الدراسة، من خلال مقاربة سيميائية، أن تُعيد النظر في الفرضيات التقليدية التي قُدمت في الدراسات السابقة، والتي حصرت موضوع السيرة في دائرة الصراع القومي بين العرب والفرس. وقد أثبتت نتائج البحث أن السيرة لا تتأسس على منطق الإقصاء، بقدر ما تنزع نحو خطاب اندماجي يسعى إلى تمثيل الآخر والاعتراف به، ضمن مشروع سردي يعبّر عن رؤية ثقافية تسامحية ذات طابع إنساني.

فقد انتهت هذه الدراسة إلى أن سيرة (حمزة البهلوان) تمثل نصًا شعبيًا غنيًا بالدلالات، قادرًا على استيعاب تأويلات متعددة، ويُعيد تمثيل الصراع الحضاري العربي-الفارسي لا على أساس التناحر، بل وفق رؤية حضارية تتطلع إلى التكامل الثقافي. لقد مكّن التحليل السيميائي من تفكيك البنية السردية للنص وإعادة تركيبها، كاشفًا بذلك عن منطق رمزي يتجاوز الظاهر إلى الباطن، وعن خطاب سرديّ يحمل مشروعًا ثقافيًا وإنسانيًا قائمًا على الاعتراف بالآخر والتعايش معه.

50 (2) نفسه: ج3، ص203.

51 (3) للاستزادة، انظر المرجع نفسه: ج2، ص338، ج3، ص3، ص5، ص ص16-17، ص ص 89-90، ص201، ص ص206-207، ص ص214-215، ج4، ص312، ص ص316-317، ص320.

فمن خلال القراءة السيميائية لعنوان السيرة كشفت أدوات التحليل السيميائي - لا سيما تحليل العنوان باستخدام مربع غريماس- أن السيرة تتضمن خطابًا خفيًّا (نصًّا باطنًا) يختلف عن ظاهر السرد. ففي الوقت الذي توحي فيه البنية السطحية بصراع بين طرفين حضاريين (العرب والفرس)، تُبرز البنية العميقة نزوعًا نحو تكامل حضاري يتمثل من خلال مزج العلامات الثقافية، وتداخل الرموز الدينية والاجتماعية، وتوزيع الأدوار السردية بين شخصيات متعددة الهويات. وبهذا تتجاوز السيرة مجرد رواية بطولية إلى نص رمزي معقّد يُعيد تمثيل الأسئلة الكبرى للهوية، والانتماء، والعلاقة مع الآخر. واستطاع الباحث من خلال تحليل العنوان أن يكشف عن مفارقة سيميائية تُشير إلى أن الجمع بين "حمزة العرب" و"البهلوان" (لقب فارسي) يعكس بُعدًا رمزيًا عن هوية مزدوجة تسعى إلى تمثيل حضارتين، ويُعد هذا العنوان نفسه مدخلًا أوليًا لفهم البنية العميقة للنص السردي بوصفه إنتاجًا ثقافيًا متداخلًا.

كما أن العتبة النصية (العنوان) أثبتت أنها ليست مجرد وسيلة تعيينية للنص، بل تحمل في طياتها مفاتيح التأويل، وتنطوي على خطاب خاص يُهيئ القارئ لبنية النص الرمزية. فقد اتضح من تحليل العنوان أن الثنائية (حمزة البهلوان/حمزة العرب) ليست فقط تسميةً للبطل، بل تُعد تمثيلًا دقيقًا للمزج الحضاري والثقافي الذي يحكم بنية السيرة برمتها.

إن أبرز ما يمكن تأكيده بعد هذه المقاربة، هو أن السيرة الشعبية، بوصفها خطابًا جماهيريًا طويل النفس، ليست نصًا بسيطًا أو عفويًا، بل هي شكل من أشكال الوعي الجماعي الذي يُعاد إنتاجه بلغة رمزية مشبعة بالدلالات الثقافية والاجتماعية والسياسية. ومن ثم، فإن قراءة هذه النصوص من خلال المنهج السيميائي لا تكشف فقط عن البنية الرمزية للنص، بل تفتح آفاقًا لتأويل التراث الشعبي العربي بوصفه حقلًا دلاليًا غنيًا قادرًا على محاورة الحاضر وإنتاج المعنى في ضوء المستجدات المعرفية والمفوهمية.

المصادر والمراجع

أولًا المصادر:

-1 قصة الأمير حمزة البهلوان: سيرة شعبية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، 2010.

ثانيًا المراجع:

1. أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008.
2. جميل حمداوي: السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، الكويت، مج25، ع3، مارس 1997.
3. الذهبي: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، القاهرة، ط3، 1985.
4. شفيق طه النوباني الوعي الشعبي للهوية القومية: دراسة في سيرة الأمير حمزة البهلوان - حمزة العرب، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب، سلطنة عمان، مج15، ع1، 2018.
5. عباس خضر حمزة العرب، طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، 1965.
6. عبد الجليل منقور: المقاربة السيميائية للنص الأدبي: أدوات ونماذج، محاضرات الملتقى الوطني الأول: السيمياء والنص الأدبي، منشورات جامعة محمد خيضر بسكرة، نوفمبر 2000.
7. عطية سليمان أحمد: الإبداع الدلالي في المتضايفين، بين البنية التصورية والبنية العصبية، كتاب ثمار القلوب للثعالبي نموذجًا، الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة، 2017.
8. غالي شكري أدب المقاومة، دار المعارف، القاهرة، 1972.
9. غريب محمد غريب: سيرة حمزة البهلوان، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة القاهرة، 1969.
10. فاروق خورشيد: في بلاد السندباد، دار الهلال، القاهرة، أغسطس 1986.
11. فيصل الأحمر: معجم السيميائيات، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.
12. مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط5، 2011.
13. محمد رجب النجار: البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، سلسلة الثقافة الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2018.

14. محمد رجب النجار: قراءة في سيرة حمزة العرب، مجلة التراث الشعبي، دائرة الشئون الثقافية والنشر، بغداد، ع5 و6، 1983.

15. محمد فكري الجزار: العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1998.

16. ابن منظور: لسان العرب، دار المعارف، القاهرة.

17. هيام هاشم عبد التواب: الأنساق الثقافية المضمرة في السيرة الشعبية: دراسة نقدية لسيرة الأمير حمزة البهلوان المعروف بحمزة العرب، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بني سويف، مصر، 2024.

برامج تليفزيونية:

18. الخطأ الشائع لغويًا .. في التنويه إلى الخطأ: تأملات، تقديم (محمد صالح)، الحلقة 90، قناة الجزيرة، 2/2/2021،